الباب الرابع والعشرون

الهلنية والشرق

الفصل الأول

الإمبراطورية السلوقية

إذا انتقلنا من أرض اليونان الأصلية مجتازين بحر إيجة إلى المستقرات اليونانية فى آسية ومصر أدهشنا أن نجد فيها حياة جديدة مزدهرة ، وأدركنا أن العصر الهلنستى لم يشهد سقوط الحضارة اليونانية بل شهد انتشارها . ذلك أن طوائف فى إثر طوائف من الجنود والمهاجرين اليونان أخذت تتدفق على آسية ، وزادت فتوح الإسكندر من ضخامة هذه الطوائف بما أتاحت للمغامرات اليونانية من فرص وما مهدت لها من سبل جديدة .

وكان سلوقس الملقب « بنيكاتور » Nicator (المظفر) يمتاز من بين قواد الإسكندر بالشجاعة ، وقوة الخيال ، والكرم الذى لا حد له . وحسبك دليلا على هذا الكرم أنه وهب زوجته الثانية استرتنيسى Stratonice الحسناء لابنه دمتريوس لما عرف أن الغلام قد افتتن بها . وغضب أنتيجونس الثانى حين جعلت بابل من نصيب سلوقس فزحف بجيوشه ليستولى على جميع بلاد الشرق الأدنى ، ولكن سلوقس وبطليموس هزماه عند غزة (٣١٢) . وكانت الأسرة السلوقية تعد هذه الحادثة مبدأ لتاريخ الإمبراطورية السلوقية والعصر الجديد ، وهى طريقة فى التاريخ بقيت فى غرب آسية إلى ظهور الإسلام . وضم سلوقس تحت لوائه عدة ممالك وثقافات قديمة هى عيلام ، وسومر ، وفارس ، وبابل ،

وأشور ، وسوريا ، وفينيقية ، وشملت آسية الصغرى وفلسطين فى بعض الأحيان ، وأنشأ فى سلوقية وأنطاكية عاصمتين لملكه كانتا أعظم ثروة وأكثر سكاناً من أية مدن عرفناها فى بلاد اليونان الأصلية . واختار لسلوقية موضعا قرب موضع مدينة بابل القديمة التى شيدت فيه بغداد فيما بعد ، لايبعد إلا قليلا عن ملتقى نهر دجلة والفرات ، وكان هذا الموضع من أصلح المواضع لاجتذاب التجارة المتبادلة بين أرض الجزيرة والخليج الفارسى وما وراءه . ولم يكد يمضى عليها نصف قرن من الزمان حتى بلغ عامرها ٦٠٠,٠٠٠ نفس ، كانوا خليطا من مختلف أجناس آسية تسيطر عليهم أقلية يونانية(*) . وكان موقع أنطاكية على نهر العاصى شبيها بموقع سلوقية ، ولم تكن تبعد عن مصبه بعداً يحول دون وصول السفن المحيطية إليها ، ولكنها تبعد عنه بعداً يجعلها فى مأمن من هجوم الأساطيل المعادية ، ويمكنها من استغلال حقول وادى النهر الغنية ، ومن اجتذاب تجارة البحر الأبيض المتوسط وشمالى الجزيرة وسوريا . وفى هذه المدينة شاد الأباطرة السلوقيون المتأخرون قصورهم ، وظلت المدينة تنمو وتزدهر حتى صارت فى عهد أنتيوخوس الرابع أغنى مدائن آسية السلوقية ، تزينها المعابد والأروقة المعمدة ، ودور التمثيل ، وساحات الألعاب الرياضية ، والمدارس ، وحدائق الأزهار ، والشوارع الواسعة ذات المناظر الرائعة ، والبساتين الجميلة ومنها حديقة دفنى Daphne التى طبقت الخافقين شهرة ما بها من أشجار الغار والسرو ، والفوارات والحداول .

واغتيل سلوقس الأول فى عام ٢٨١ ، بعد أن حكم البلاد حكماً صالحا دام خمسا وثلاثين سنة كسب فيها قلوب شعبه . وأخذت دولته بعد موته فى التفكك ،

(*) وقد استخرج الأستاذ لروى وترمان Leroy Waterman من هذا الموضع فى عام ١٩٣١ ألواحا تدل على أن رجلا من أغنى رجال سلوقية قد ظل يتهرب من أداء الضرائب خمسا وعشرين سنة(١) .

تمزقها الاختلافات الجغرافية والعنصرية ، والتنازع العنيف على العرش ، وغارات البرابرة من كل صوب . واستبسل أنتيوخوس الأول سوتر Soter (المنقذ) فى حرب الغاليين ؛ وعاش أنتيوخوس الثانى ثيوس (الإله) ، عيشة الإدمان المستمر ، كأنه أراد أن يثبت مرة أخرى ما تتعرض له البلاد ذات الحكومات الملكية المطلقة من خطر شديد ؛ وبدأت زوجته لأوديسى Laodice سلسلة الدسائس والمؤامرات التى مزقت البيت المالك شر ممزق وقضت عليه فى آخر الأمر . وكان أنتيوخوس الثالث الأكبر رجلا عظيم الكفاية ، حسن الثقافة ؛ ويظهره تمثاله النصفى المحفوظ فى متحف اللوفر رجلا يونانيا — مقدونيا جمع إلى شجاعة المقدونيين ذكاء اليونان . وقد استعاد بحروبه الطويلة معظم الأقاليم التى فقدتها الإمبراطورية من أيام سلوقس الأول ، وأنشأ مكتبة فى أنطاكية وناصر الحركة الأدبية التى بلغت ذروتها على يدى مليجر الغزى Meleager of Gaza فى أواخر القرن الثانى . وحافظ هذا العاهل على العادة اليونانية ، عادة استقلال المدن بشئونها ، وكتب إليها يقول إنه « إذا أمر بشىء يخالف القوانين ، فعليها ألا تعير أمره التفاتا ، بل يجب أن تفترض أنه فعل ما فعل عن جهل[٢] » . ولكنه قضت عليه المطامع المفرطة ، والخيال القوى ، والعشق العنيف . وهزمه بطليموس الرابع عند رافيا Raphia فى عام ٢١٧ ، وضاعت منه فينيقية ، وسوريا ، وفلسطين . وخفف من وقع هذه الهزيمة وأعقابها حملته المظفرة إلى بكتريا والهند (٢٠٨) ، وهى الحملة التى جددت أعمال الإسكندر . وأغراه هنيبال بأن يساعده على رومة فأرسل جيشا إلى عوبية ؛ وهام وهو فى سن الخمسين بحب فتاة حسناء فى خلقيس . وأخذ يغازلها غزلا شريفا ، ثم تزوجها باحتفال عظيم ، ونسى الحرب وقضى فصل الشتاء يستمتع معها بالسعادة[٣] . وهزمه الرومان فى ترمبيلى ، وطردوه إلى آسية الصغرى ، وهجموا عليه هجوما عنيفاً فى مجنيزيا . ولم تطاوعه

نفسه على السكون فتوزط فى حرب أخرى فى بلاد الشرق مات فى أثنائها بعد أن حكم ستة وثلاثين عاماً .

وكان ابنه سلوقس الرابع ميالا للسلم ، صرف شئون الدولة بالاقتصاد والحكمة ، واغتيل فى عام ١٧٥ ق . م وكان أصغر ابنيه فى ذلك الوقت أركونا فى أثينة ، حيث ذهب ليدرس الفلسفة . فلما سمع بموت سلوقس ، جمع جيشا زحف به على أنطاكية ، وخلع قاتل أبيه ، واعتلى العرش . وكان أنتيوخوس الرابع أجدر أفراد هذه الأسرة بالاهتمام وأكثرهم أخطاء ؛ ذلك أنه كان مزيجا نادرا من الذكاء والجنون ، والجاذبية ، وقد حكم مملكته حكما حازما رغم ما ارتكبه من مئات المظالم والسخافات . فقد أجاز لعماله أن يسيئوا استخدام سلطاتهم ، وأطلق يد عشيقته فى ثلاث مدن ؛ وكان كريما وقاسيا لايعتمد فى أحكامه على عقل ، يحكم ويصفح عن هوى ، ويفاجئ البسطاء من أفراد الشعب ؛ بالهدايا القيمة ، ويلقى بالنقود على رؤوس الجماهير فى الشوارع كما يفعل الأطفال المنتشون . وكان يحب الخمر والنساء والفنون ؛ يفرط فى الشراب ، ويقوم من مجلسه فى الولائم ليرقص عاريا مع أضيافه ، أو يتعاطى نفايات الطعام والشراب . وكان رجلا إباحيا شاءت الأقدار أن تحقق له ماكان يحلم به من سلطان . كان يحتقر وقار البلاط وزاخرفه ، ويمزح مزاحاً عملياً مع كبار رجال الدولة ، ويتخفى ليستمتع بما يهيئه التخفى من الترف . وكان يسره أن يختلط بأفراد الشعب ليتعرف مايقولونه عن الملك ، وأن يتجول فى أماكن الفنانين ليدرس أعمال الحفارين والصياغ ويناقشهم فى التفاصيل الفنية لصناعتهم . وكان يشعر بحماسة صادقة للآداب والفنون والأفكار اليونانية . وبفضله ظلت أنطاكية مائة عام كاملة مركز الفنون فى العالم اليونانى ؛ وكان يجود بالمال بسخاء على الفنانين لينحتوا التماثيل ويشيدوا المعابد فى غير أنطاكية من مدن هلاس ، فأعاد تزيين ضريح أپلو فى ديلوس ، وشاد دار تمثيل لتيجيا ، وتبرع بالأموال اللازمة لإتمام الأولمپيوم فى أثينة . وإذ كان

قد قضى فى رومة أربعة عشر عاما وهو فى سن يكون فيها المرء سريع التأثر بما حوله ، فقد تشرب فيها بحب الأنظمة الجمهورية ؛ وكأنما أراد أن يستبق عهد أغسطس ، فكان يسره ويوائم مزاجه وسياسته أن يخلع على سلطته الملكية المطلقة ستاراً من الحرية الجمهورية . وكان أهم آثار هيامه بكل ما هو رومانى أن أدخل ألعاب المجالدين فى أنطاكية عاصمة ملكه . واستاء الشعب من هذه الألعاب الوحشية ، ولكن أنتيوخوس استرضاه بما أقام له من الاستعراضات الفخمة الرائعة وما أنفق عليها من أموال طائلة ؛ فلما أن ألف الشعب مظاهر التقتيل عد انحطاطه هذا نصراً له . وكان من مميزاته أنه بدأ حياته رواقيا شديد التحمس للرواقية ، ثم اختتمها بعد أن تحول فى غير عناء إلى الأبيقورية . وكان يستمتع بصفاته هذه استمتاعا بلغ من قدره أن نقش على النقود التى ضربت فى أيامه «أنتيوخوس الإله البيّن Antiochus Theos Epiphanes» . ولما أن عدا طوره كما يفعل أمثاله من ذوى الخيال ، حاول فى عام ١٦٩ أن يفتح مصر . وكاد يتم له ما أراد لولا أن أمرته رومة ، وكانت هى الأخرى تتطلع إلى الاستيلاء على مصر ، أن ينسحب من أرض إفريقية بأجمعها . وطلب أنتيوخوس أن يتاح له بعض الوقت ليفكر فى أمره ، ولكن پوبليوس رسول رومة رسم فى الرمل دائرة حول أنتيوخوس وأمره أن يقطع برأى قبل أن يجتاز محيطها . فاستسلم وهو غاضب ثائر ، ونهب هيكل أورشليم ليسترد ما أنفق فى حملته من الأموال ، طلب المجد كما طلبه أبوه من قبل فى شن الحرب على القبائل الشرقية ، ومات فى فارس وهو فى طريقه إلى هذه القبائل من الصرع والجنون والمرض(٥) .

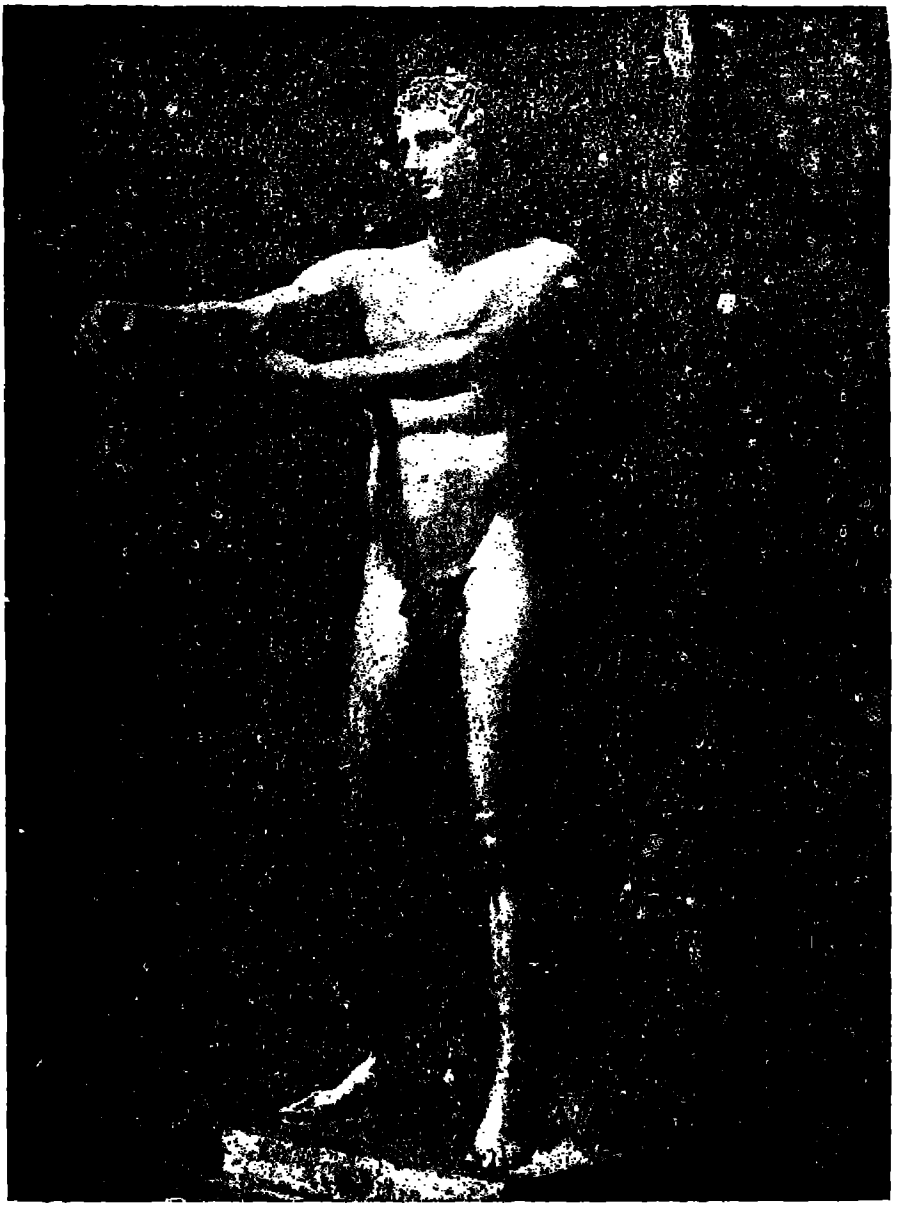

(شكل ٤٩) أبكسيومنوس ، نسخة رومانية عن ليسبوس (؟)
(متحف الفاتيكان برومة)

الفصل الثانى

الحضارة السلوقية

لقد كانت مهمة الدولة السلوقية فى التاريخ أن تهب الشرق الأدنى الاستقرار الاقتصادى والنظام السياسى ، اللذين وهبتهما إياه فارس قبل الإسكندر ، واللذين أعادتهما إليه رومة بعد قيصر . ولقد أدت فى واقع الأمر هذه المهمة رغم ما ينتاب أحوال البشر من حروب وثورات ونهب وفساد . ذلك أن الفتوح المقدونية قد حطمت ما أقامته الحكومات واللغات من حواجز بين الأمم ، ودعت الشرق والغرب إلى تبادل المصالح التجارية تبادلا أتم مما كان بينهما من قبل ؛ وكانت نتيجة هذا أن بعثت الحياة فى بلاد آسية اليونانية بعثا باهرا جديداً . فبينما كان الانقسام والنزاع وجدب التربة وتحول الطرق التجارية يقضى على بلاد اليونان الأصلية ، كانت الوحدة والسلم اللتان احتفظ بهما الأباطرة السلوقيون ذواتى أثر عظيم فى تشجيع الزراعة والتجارة والصناعة . ولم تعد مدن آسية اليونانية حرة فى إشعال نار الثورات أو التجارب فى أساليب الحكم ، بل أرغمها الملوك على أن تأتلف ، حتى أصبح الائتلاف إلها يعبد فى هذه المدن[٦] ، وكانت نتيجة هذا أن ازدهرت من جديد مدن قديمة مثل ميليطس ، وإفسوس ، وأزمير .

وكانت أودية دجلة والفرات ، والأردن ، والعاصى ، وميندر ، وهاليس ، وجيحون خصبة إلى حد لا يستطيع خيالنا أن يتصوره الآن لما يثقله من مناظر الصحارى ، والقفار الصخرية التى تغطى أصقاعا واسعة من بلاد الشرق الأدنى بعد أن ظلت ألفى عام كاملة معرضة لعوامل التعرية ، ولتقطيع الغابات وإهمال الأهلين حرثها وزرعها[٧] . وكانت الأرض فى أيام تلك الإمبراطورية ترويها

شبكة من القنوات تشرف عليها الدولة وتعنى بأمرها . وكانت وقتئذ ملكا للملوك أو النبلاء من رجال حاشيته ، أو للمدن ، أوالهياكل ، أو الأفراد . وكان الأقنان هم الذين يزرعونها فى جميع هذه الأحوال وينتقلون معها إذا ما أورثت أو بيعت . وكانت الحكومة تعد كل ما تحتويه الأرض من ثروة ملكا قوميا[٨] ، لكنها قلما كانت تعنى باستغلالها . وقد بلغت الحرف وقتئذ ، والمدن نفسها ، درجة عظيمة من التخصص ؛ فكانت ميليطس مثلا مركزا هاما لصناعة النسيج ، وكانت أنطاكية تستورد المواد الغفل وتحيلها إلى بضائع مصنوعة ، وبلغت بعض المصانع الكبرى التى تستخدم العبيد درجة لا بأس بها من الإنتاج الكبير ترسله للأسواق العامة[٩] . ولكن الاستهلاك المحلى لم يجار الإنتاج ، لأن فقر الأهلين لم يساعد على قيام أسواق محلية كبيرة تشجع الصناعات الكبرى .

وكانت التجارة حياة الاقتصاد الهلنستى ، فهى التى أوجدت الثروات الكبرى ، وشادت المدن العظيمة ، واستخدمت نسبة متزايدة من السكان الآخذين فى الازدياد . وحل التعامل بالنقد فى ذلك الوقت محل المقايضة التى ظلت أربعة قرون وسيلة للتعامل لم تقض عليها نقود كروسس . لكنها وقتئذ كادت تختفى اختفاء تاما من تلك البلاد ؛ فقد أصدرت مصر ، ورودس ، وسلوقية ، وبرجموم ، وغيرها من الحكومات نقودا بلغت من الاستقرار والتشابه حدا يكفى لتيسير التجارة الدولية . وكانت المصارف تيسر وسائل الائتمان الفردى والعام . وكانت السفن كبيرة تتراوح سرعتها بين أربعة أميال بحرية وستة أميال فى الساعة ، وكان لها فضل تقصير المسافات بعد أن استطاعت السير فى عرض البحار . وفى البر عنى السلوقيون بالطرق الكبرى التى ورثتها بلاد الشرق عن فارس ، وأكثروا منها ، وزادوا فى أطوالها . وكانت طرق القوافل الممتدة من أطراف آسية الصغرى تلتقى فى سلوقية ثم تتفرع منها إلى دمشق ، وبريتس (بيروت) وأنطاكية . وأثرت سلوقية من هذه التجارة الواسعة ،

وعمات على إنمائها ، فقامت أحياء غاصة بالسكان فيها وفى بابل : وصور ، وطرسوس ، وزانثوس ، ورودس ، وهليكرنسس ، وميليطس ، وإفسوس ، وأزمير ، وبرجموم ، وبيزنطية ، وسزيكوس Cyzicus ، وأپاميا Apamea ، وهرقلية ، وأمسوس Amisus ، وسينوب ، وبنتيكپيوم Banticapaeum ، وألبيا Albia ، ولسماكيا Lysimacheia ، وأبيدوس ، وثسلونيكا (سلونيكا) ، وخلقيس ، وديلوس ، وكورنثة ، وأمبراشيا Ambracia ، وإپدامنوس Epidamnus (درازو الحالية) ، وتراس ، ونيپوليس Neapolis (نابلى) وروما ، ومساليا ، وإمپوريوم Emporium ، وبنورموس Banormus (پالرمو) ، وسرقوسة ، ويوتيكا Utica ، وقرطاجة ، وقورينى Cyrene والإسكندرية . وكانت شبكة ناشطة من طرق التجارة تربط أسبانيا فى عهد قرطاجة برومة ؛ وقرطاجة فى أيام هملكار وسرقوسة فى عهد هيرون الثانى برومة أيام آل سپيو ؛ ومقدونية فى عهد الأنتجونيين ، وبلاد اليونان فى عهد العصب المتحالفة ، ومصر فى عهد البطالمة ، والشرق الأدنى فى عهد السلوقيين ، والهند فى عهد آل موريا Maurya والصين فى عهد أسرة هان . وكانت الطرق الآتية من بلاد الصين تخترق التركستان ، وبكتريا ، وفارس ، أو تجتاز بحر أرال والبحر الأسود وبحر قزوين . أما الطرق الآتية من الهند فكانت تجتاز أفغانستان وفارس إلى سلوقية أو تخترق بلاد العرب والبتراء إلى أورشليم ودمشق ، أو تعبر المحيط الهندى إلى أدانا (عدن) ثم تجتاز البحر الأحمر إلى أرسنوى (السويس الحالية) ، ومنها إلى الإسكندرية . ومن أجل الإشراف على هذين الطريقين الآخرين اشتبك السلوقيون والبطالمة فى « الحروب السورية » التى أضعفتهما جميعاً آخر الأمر ضعفاً أخضعهما إلى روما .

وورثت الملكية السلوقية التقاليد الأسيوية فكانت ملكية مطلقة ، لاتحد من سلطتها جمعية شعبية . وقد نظم بلاط الملك على الطراز الشرقى فكان فيه

رجال التشريفات ذوو الملابس المزركشة ، والخصيان ، والحلل الرسمية ، والبخور والموسيقى ؛ ولم يبق فيه شيء يونانى عدا الكلام والملابس الداخلية . ولم يكن الأشراف فيها زعماء شبه مستقلين كما كانت الحال فى مقدونية وفى أوربا فى العصور الوسطى ، بل كانوا موظفين إداريين أوعسكريين بعينهم الملوك . وهذا النظام الملكى هو الذى انتقل من بلاد الفرس عن طريق السلوقيين والساسانيين إلى رومة فى عهد دقلديانوس ، وبيزنطية فى عهد قسطنطين . وكان السلوقيون يعرفون أن سلطانهم فى هذا المحيط الأجنبى إنما يعتمد على ولاء السكان اليونان ، ولهذا بذلوا كل ما يستطيعون من جهد لإعادة المدن اليونانية القديمة وإنشاء مدن أخرى جديدة ؛ فأنشأ سلوقس الأول تسع مدن باسم سلوقية وستاً باسم أنطاكية وخمساً باسم لأوديسيا ، وثلاثاً باسم أپاميا ، وواحدة باسم استرتونيس Stratonice ، وحذا خلفاؤه حذوه بقدر ما وسعته جهودهم التى كانت أقل من جهوده . ونمت هذه المدن وتضاعف عددها كما حدث فى أمريكا فى القرن التاسع عشر.

وعن طريقهم أخذ غربى آسية يصطبغ بالصبغة اليونانية بخطى سريعة فى ظاهر الأمر . ولاحاجة إلى القول بأن هذه العملية كانت قديمة العهد ، فقد بدأت فى أيام الهجرة الكبرى ، وكان الانتشار الهلنستى من بعض نواحيه هو نهضة أيونيا من جديد وعودة الحضارة اليونانية إلى مواطنها الأسيوية القديمة ، ولقد كان اليونان حتى قبل الإسكندر يشغلون مناصب رفيعة فى الإمبراطورية الفارسية ، كما كان التجار اليونان يسيطرون على المسالك التجارية فى الشرق الأدنى القريب . أما الآن فإن الفرص السياسية والتجارية والفنية قد اجتذبت سيلا جارفاً من المهاجرين المغامرين ، والمستعمرين والكتبة ، والجند والتجار ، والأطباء ، والعلماء ، والسرارى . وكان المثالون والحفارون اليونان ينحتون التماثيل وينقشون النقود لملوك فينيقية ، وليشيا ، وكاريا ، وصقلية ، وبكتريا.

وهرعت الراقصات اليونانيات إلى الثغور الأسيوية[١٠] ، وغشى الفساد الخلقى الجنسى ستار يونانى ظريف ، وأثارت مدارس الألعاب الرياضية اليونانية وساحاتها فى بعض الشرقيين شغفاً لم يألفوه من قبل بالألعاب والحمامات. فأنشأت المدن طرقاً جديدة تمدها بالماء ونظماً جديدة لصرف الأقذار ، ورصفت الطرق ونظفت . ونشطت المدارس ، ودور الكتب ، والتمثيل والقراءة والأدب ؛ وكان طلاب العلم فى الكليات والجامعات يطوفون بشوارع المدن يحاجج بعضهم بعضاً ، أو يحاجون الناس كما كانوا يفعلون فى العهد القديم ؛ ولم يكن أحد يحسب من المثقفين إلا إذا كان يفهم اللغة اليونانية ، ويستطيع الاستمتاع بمسرحيات مناندر ، ويوريديز . وكانت سيطرة الحضارة اليونانية على بلاد الشرق الأدنى من أغرب الظواهر فى التاريخ القديم ؛ ولم تر آسية من قبل مثل هذا التبديل السريع الواسع المدى . غير أننا لانعرف من تفاصيله وآثاره إلا النزر اليسير ؛ ذلك أن ما وصلنا من المعلومات عن آداب آسية السلوقية ، وفلسفتها ، وعلومها نجد ضئيل ، وإذا لم نجد فيه إلا عددا قليلا من الشخصيات الحبارة أمثال زينون الرواقى ، وسلوقس الفلكى ، وفى العهد الرومانى مليجر الشاعر ، وبسيديس الذى كان يلم بكثير من العلوم المختلفة ، إذا لم نجد إلا هذا العدد القليل فإنا لانستطيع أن نجزم أنه لم يكن هناك كثيرون غيرهم . والحق أن هذه الثقافة كانت ثقافة مزدهرة ، ذات ألوان متعددة ، رقيقة مهذبة ، متحمسة ، لا تقل خصباً فى الفنون عن أية ثقافة سبقتها . ومبلغ علمنا أنه لم توجد قبلها ثقافة تضارعها فى سعة انتشارها وفى وحدتها المعقدة بين ماكان يحيط بها من بيئات متباينة . وقصارى القول أن غرب آسية ظل مدى قرن من الزمان تابعاً لأوربا ، وأن السبيل قد مهدت للسلام الرومانى والتآلف المسيحى الجامع الشامل .

ولكن هذا لايعنى أن الشرق قد غلب على أمره ، فقد كانت خصائصه متأصلة فيه قديمة العهد ، ولم يكن من اليسير أن يسلم روحه إلى الغرب أياً كانت

قوته . لهذا ظلت جمهرة الناس تتخاطب بلغاتها الوطنية ، وتجرى على سننها وأساليبها المألوفة من قديم الزمان ، وتعبد الآلهة التى كان يعبدها آباؤها وأجدادها ؛ وكان انغشاء اليونانى الذى يغشى البلاد البعيدة عن شواطئ البحر الأبيض المتوسط رقيقاً ، وكانت المراكز الهلينية القائمة فى هذه الأصقاع أمثال سلوقية على نهر دجلة جزائر يونانية فى البحر الشرق . ولم تمتزج فى هذه الأصقاع الأجناس والثقافات الامتزاج الذى كان يحلم به الإسكندر ؛ بل كان من فوق سطحه يونان وحضارة يونانية ، من تحتهما خليط من الشعوب والثقافات الشرقية ، ولم تدخل الصفات الذهنية اليونانية فى العقل الشرقى ؛ ولم تحدث ما امتاز به اليونان من نشاط وحب للجديد ، وحرص على الشئون الدنيوية ، ورغبة شديدة فى الكمال ، والتعبير عن الذات والنزعة الفردية القوية ، لم يحدث هذا كله تغيراً ما فى أخلاق الشرقيين . بل حدث عكس هذا ، حدث على مر الأيام أن جاشت أساليب التفكير والإحساس الشرقية من أسفل وغمرت الطبقة اليونانية الحاكمة ، ثم نقلها هؤلاء إلى الغرب فكانت هى التى بدلت العالم « الوثنى » . ففى بابل استعاد التاجر السامى ومصرفى الهيكل الصابران سيطرتهما على الهلنى المتقلب الفرار ، فاحتفظا بالكتابة المسمارية ، وأنزلت اللغة اليونانية إلى المكانة الثانية فى عالم الأعمال ؛ وأفسد التنجيم ، والكيمياء الكاذبة ، فلك اليونان وعلومهم الطبيعية ، وأثبتت الملكية المطلقة الشرقية أنها أقوى من الدمقراطية اليونانية ، وانتهى الأمر بأن فرضت صورتها على الغرب نفسه ، فأصبح الملوك اليونان والأباطرة الرومان آلهة كما كانوا فى بلاد الشرق ، وانتقلت نظرية حق الملوك المقدس التى كانت تسود بلاد الشرق إلى أوربا الحديثة عن طريق رومة والقسطنطينية .

وبث الشرق عن طريق زينون نزعته التجريدية والجبرية فى الفلسفة اليونانية ، كما سرى تصوفه وتقواه من مئات السبل إلى الفراغ الذى تركه تدهور

الدين اليونانى السليم . وسرعان ما قبل اليونان آلهة الشرق ورأوا أنهم فى جوهرهم آلهتهم هم ؛ ولكن اليونانى لم يكن فى واقع الأمر يؤمن بالآلهة كما كان يؤمن بها الشرقى ، ولهذا بقى الإله الشرقى ومات الإله اليونانى ، فعادت أرتميس الإفيزية كما كانت إلهة شرقية للأمومة ؛ ذات اثنى عشر ثديا ؛ واستسلم عدد عظيم من غزاة اليونان للطقوس الدينية البابلية ، والفينيقية . والسورية . وقصارى القول أن اليونان عرضوا على الشرق الفلسفة ، وأن الشرق عرض على اليونان الدين ، كانت الغلبة للدين ؛ لأن الفلسفة كانت ترفا يقدم للأقلية الضئيلة ، أما الدين فكان سلوى للكثيرين . واستعاد الدين سلطانه فى هذا التبادل التاريخى المضطرب بين الإيمان والكفر ؛ والنزعة التصوفية والنزعة الطبيعية ؛ والدين والعلم ؛ وذلك لأن الدين أدرك ما ينطوى عليه الإنسان من ضعف وعزلة ، وبعث فيه الإلهام والشعر . وقد سر العالم الذى زالت عن أعينه غشاوة الخداع ، العالم المستقل ، الذى سئم الحروب ، سر هذا العالم أن يعود إليه الإيمان والأمل . وكانت أعمق فتوح الإسكندر أثراً نتيجة أبعد ما تكون عن العقول ، ألا وهى اصطباغ الروح الأوربية بالصبغة الشرقية .

الفصل الثالث

برجـــوم

لقد كان امتصاص آسية لليونان امتصاصاً تدريجياً سلمياً فى ضعف قوة الدولة السلوقية ، ونشأة ممالك مستقلة على أطراف العالم الهلنستى . فقد أقامت منذ عام ٢٨٠ بلاد أرمينية ، وكپدوكيا وبيقس ، وبيثينيا ممالك مطلقة مستقلة ؛ ولم تلبث المدن اليونانية القائمة على شواطئ البحر الأسود أن خضعت لحكم الأسيويين . وانفصلت بكتريا وسجديانا من حكم السلوقيين حوالى عام ٢٥٠ ؛ وفى عام ٢٤٧ اغتال أرسسيز زعيم الپارنى Parni — وهى قبيلة إيرانية بدوية — حاكم بلاد الفرس السلوقى ، وأنشأ مملكة پارثيا التى قدر لها أن تنازع رومة سلطانها عدة قرون ؛ وفى عام ٢٨٢ استولى فلاتيروس Philataerus على تسعة آلاف وزنة من المال ، وكان لسمخوس Lysemachus قد ائتمنه عليها ، كما استولى على تل برجوم الحصين فى آسية وأعلن استقلاله عن الدولة السلوقية . وضم ابن أخيه أمنيز الأول Eumenes الأول إلى ملكة پيتانى Pitane وأترنيوس Atarneus وجعل برجوم مملكة مطلقة مستقلة ذات سيادة (٢٦٢) . وكان لأتلوس الأول Attalus فضل كبير على آسية اليونانية لأنه صد عنها الغاليين الذين اخترقوا هذه الأصقاع حتى وصلوا إلى أسوار مدينته (٢٣٠) ؛ وواصل أمنيز الثانى أكبر أبنائه حكم أبيه الحازم ، ولكنه أثار دهشة اليونان بأن استغاث برومة لتحميه من أنتيوخوس الثانى ؛ وبعد أن هزم بمعونتها أنتيوخوس عند مجنيزيا ترك له الرومان جميع بلاد آسية الصغرى تقريبا ، وخلفه على العرش أخوه أتلوس الثانى ، وكان يرتاب فى مقدرة أبنائه على أن يحتفظوا بحرية برجوم ، فأوصى بملكه وهو على فراش الموت (١٣٩) إلى رومة .

وبذلت الدولة الصغيرة كل ما فى وسعها لتكفر عما أحاط بمولدها ونشأتها من غدر وخيانة ، فأخذت تنافس الإسكندرية بوصفها مركزاً للعلم والفن ؛ فلم تنفق كل ما عاد عليها من خيرات المناجم ، والكروم ، وحقول الغلال ، ومن نسيج الصوف وصناعة رقائق الجلد والعطور ، والآجر والقرميد ، ومن سيطرتها على تجارة بحر إيجة ، نقول إنها لم تنفق كل ما عاد عليها من هذا فى إنشاء جيش وأسطول قويين بل أنفقت جانبا كبيراً منه فى تشجيع الأدب والفن ؛ ذلك أن ملوك برجموم كانوا يؤمنون بأن الحكم والأعمال التجارية والمالية الخاصة تستطيعان أن تتنافسا تنافساً يؤتى خير الثمرات ، وأن تقضيا على كثير من أسباب العجز والشره . فقد كان الملك يستخدم العبيد فى زرع مساحات واسعة من الأرضين ، ويدير كثيراً من المصانع ، والمحاجر والمناجم ، وإن لم يكن ذلك بطريق الاحتكار . وبهذه الطريقة الفذة ازدادت الثروة وتضاعفت ، وأضحت برجموم حاضرة مزخرفة ، اشتهرت بمذبح زيوس ، وبقصورها الفخمة ، وبمكتبتها الجامعة ، ودار تمثيلها العظيمة ، وربما كان فيها من ساحات رياضية وحمامات ؛ بل إن ما كان فيها من دورات مياه عامة ليشهد بفضل إدارتها البلدية[11] . ولم تكن مكتبتها الجامعة يفوقها فى عدد مجلداتها ، وفى شهرة علمائها الواسعة إلا مكتبة الإسكندرية وحدها ، وكان معرض صورها يحتوى على مجموعة عظيمة من الرسوم الملونة يتردد عليها الزائرون ليستمتعوا بجمالها . وظلت برجموم خمسين عاما أنضر زهرة فى الحضارة الهلينية .

وكان بيت سلوقس فى هذه الأثناء آخذاً فى الاضمحلال والفناء . ذلك أن قيام الممالك المستقلة فى أنحاء الإمبراطورية السلوقية كان يقصر سلطان الملوك السلوقيين على سوريا وبلاد الجزيرة . وأخذت بارثيا وبرجموم ، ومصر ، وروما تعمل جاهدة فى صبر وأناة لإضعاف هذه الأسرة ، يساعدها على هذا

المدعون الذين كانوا يطالبون بعرش البلاد كلما انتقل هذا العرش من ملك إلى ملك، كما تساعدها الجزازات والانشقاق والحرب الأهلية . وبينا كان دمتريوس الأول يعيد القوة والنشاط للحكومة السلوقية ، إذ جيشت رومة فى عام ١٥٣ جيشاً من مرتزقة الجند جاءت بهم من كافة الأنحاء لتأييد مغامر من أهل أزمير فى مطالبته الباطلة بعرش البلاد . وانضمت برجموم ومصر فى الهجوم على دمتريوس ، فقاوم هذا الملك جيوش أعدائه مقاومة الأبطال ، وخر صريعاً فى ميدان القتال ، وآلت سلطة السلوقيين إلى يدى رجل حقير خامل يدعى ألكسندر بالاس Alexander Balas ، كان ألعوبة فى أيدى عشيقاته ورومة .

الفصل الرابع

الهلنية واليهود

يدور تاريخ بلاد اليهود فى العصر الهلنستى حول نزاعين : الكفاح الخارجى بين آسية السلوقية ومصر البطالمة للاستيلاء على فلسطين ، والكفاح الداخلى بين أساليب الحياة الهلنية والعبرية . فأما الكفاح الأول فهو تاريخ ميت ، وفى وسعنا أن نفرغ منه فى عبارات موجزة ، وأما الكفاح الثانى فهو فى اعتقاد ماثيوآرنلد Mathew Arnold أحد الانشقاقات الخالدة التى طرأت على الأفكار والمشاعر البشرية . وكانت بلاد اليهود (أى فلسطين الواقعة جنوب السامرة) فى التقسيم الأول لإمبراطورية الإسكندر من نصيب بطليموس ؛ ولكن السلوقيين لم يقبلوا قط هذا التقسيم لأنهم وجدوا أنفسهم بمقتضاه منفصلين عن البحر الأبيض المتوسط ، ولأنهم كانوا يطمعون فيما قد يعود عليهم من ثراء بسبب التجارة المارة بدمشق وأورشليم . وانتصر بطليموس فى الحروب التى ثارت بسبب هذا النزاع ، واستولى على بلاد اليهود وظلت خاضعة لسلطان البطالمة أكثر من مائة عام (٣١٨ — ١٩٨) ، كانت تؤدى فى خلالها جزية سنوية مقدارها ثمانية آلاف وزنة ، ولكنها ازدهرت ونعمها الرخاء رغم هذا العبء الثقيل . وقد ترك البطالمة لبلاد اليهود قسطا كبيرا من الحكم الذاتى ، تحت سلطان كاهن أورشليم الأكبر والجمعية الوطنية الكبرى . وأضحت الجروسيا أو مجلس الكبار ، التى أنشأها عزرا ونحميا قبل ذلك العهد بمائتى عام ، مجلس شيوخ ومحكمة عليا فى وقت واحد . وكان أعضاؤها السبعون أو الأكثر من السبعين يختارون من بين رؤساء الأسر الشهيرة فى البلاد ، ومن بين أكبر رجال العلم (السفريم Soferim) . وقد ظلت قرارات هذه الجمعية المعروفة

باسم « الدبرسفريم » Dibre Soferim أساس الدين اليهودى العام من العصر الهلنستى إلى العصر الحديث .

وكان أساس اليهودية هو الدين : كما كانت فكرة وجود إله قادر تسيطر على كل ناحية من نواحى الحياة اليهودية وكل لحظة من لحظاتها . وكان مجلس الكبراء يفرض القوانين الأخلاقية والآداب الاجتماعية بجميع دقائقها . ويشرف على تنفيذها إشرافا تاما . وكانت أسباب اللهو والتسلية والألعاب قليلة محدودة ، وكان الزواج بغير اليهود محرما ، وكذلك العزوبة وقتل الأطفال . ومن ثم كان اليهود يلدون كثيراً ويربون جميع أبنائهم ، وظلوا طوال العصور القديمة يتكاثرون رغم الحروب والمجاعات حتى بلغ عددهم فى الإمبراطورية الرومانية أيام قيصر سبعة ملايين . وكان معظم السكان قبل العهد المقدونى يشتغلون بالزراعة ، لأن اليهود لم يكونوا قد أصبحوا بعض أمة من التجار . وقد كتب عنهم يوسفوس Josephus فى ذلك العهد المتأخر ، وهو القرن الأول بعد الميلاد ، يقول : « لسنا شعباً تجاريا[١٣] » . أما الشعوب التجارية العظيمة فى ذلك العصر فهى الفينيقيون والعرب واليونان . وكان الرق موجودا فى بلاد اليهود كما كان فى غيره من الأقطار ، غير أن حرب الطبقات كانت هادئة نسبياً . ولم يكن للفنون عندهم شأن عدا الموسيقى فقد كانت راقية مزدهرة . وكان الناى والطبل ، والصنوج و « قرن الكبش » أو البوق ، والقيثارة ، تستخدم مصاحبة للصوت الواحد ، أو للأغانى الشعبية ، أو الترانيم الدينية . وكان الدين اليهودى يعيب على الطقوس اليونانية استرسالها فى الخضوع لخيال الشعب ويزدريها لهذا السبب ؛ وكانت الصلة مقطوعة بينه وبين الصور ، والنبوءات ، ومعرفة الغيب بالنظر فى أحشاء الطير ، وكان أقل تجسيدا ، وتخريفاً ، وأقل بهرجة ومرحا من دين اليونان . وكان الربانيون يواجهون طقوس الشرك الهلنية بإنشاد هذه النغمة التى لاتزال تتردد حتى اليوم فى كل كنيس يهودى : « استمعى يا إسرائيل : الرب إلهنا ، الرب واحد » .

وأدخل الغزاة اليونان فى هذه الحياة البسيطة المتزمتة كل ما فى الحضارة المهذبة الأبيقورية من أسباب اللهو والغواية . وقد كان يحيط ببلاد اليهود حلقة من المستقرات والمدن اليونانية : السامرة ، ونيوبوليس ، وغزة، وعسقلان ، وأزوتس Azotus (أشرود) وجبا Joppa (يافا) ، وأپولونيا Appollonia ؛ ودوريس Dorisa ، وسكمينا Sycamina ، وپوليس Polis (حيفا) وأكو (عكا). وكان على الضفة الأخرى من نهر الأردن عصبة من عشر مدن يونانية : هى دمشق ، وجدارا Gadara ، وجراسا Gerasa ، وديوم Dium ، وفلدلفيا ، وپلا Pella ، ورافيا Raphia ، وهپو Hippo ، واسكيثو پوليس Scythopolis ؛ وكنيثا Canetha. وكانت تقوم فى كل واحدة من هذه المدن نظم ومؤسسات يونانية وهياكل للآلهة والإلهات اليونانية ، ومدارس ، ومجامع علمية ، ومدارس وساحات للألعاب الرياضية ، وألعاب يشترك فيها الناس وهم عراة . وأقبل على أورشليم من هذه المدن ومن الإسكندرية ، وأنطاكية ، وديلوس ، وردوس يونان ويهود يحملون العدوى الهلينية ، عدوى التبحر فى العلم والفلسفة ، والفن ، والأدب ، والاستمتاع بالجمال واللذة ، والغناء ، والرقص ، والشراب ، والطعام ، والألعاب الرياضية ، والعشيقات ، والغلمان ؛ فضلا عن السفسطة المرحة ، التى ترتاب فى جميع القوانين الأخلاقية ، والتشكك الذى قضى على كل عقيدة فى خوارق الطبيعة . وهل يستطيع الشاب اليهودى أن يقاوم هــذه المغريات ، التى تدعوه إلى الاستمتاع باللذة وإلى التحرر من آلاف القيود الضيقة الثقيلة ؟ لقد بدأ الشبان اليهود الفكهون يسخرون من الكهنة ويصفونهم بأنهم طلاب مال ، كما يصفون الأتقياء من أتباعهم بأنهم حمقى ، ينحدرون إلى الشيخوخة من غير أن يعرفوا الملاذ والترف ومباهج الحياة . وانضم إليهم فى هذا أغنياء اليهود ، لأنهم كانوا يستطيعون أن يستجيبوا لداعى الغواية . وأحس اليهود الذين كانوا يطلبون المناصب من الموظفين اليونان بأن من

حسن السياسة أن يتكلموا اللغة اليونانية ، وأن يعيشوا كما يعيش اليونان ، بل أن يقولوا بضع كلمات طيبة فى حق الآلهة اليونانية .

وكانت ثلاث قوى تحمى اليهود من هذا الهجوم القوى على عقلهم وحواسهم : هى ماوقع عليهم من الاضطهاد أيام أنتيوخوس الرابع ، وحماية رومة ، وسلطان القانون وهيبته لأنه كان فى اعتقاد اليهود وحيا منزلا من عند الله . وتجمع الأتقياء من اليهود ، كما تتجمع الكرات البيضاء فى الدم لحماية الجسم من جراثيم الأمراض ، وألفوا هيئة من الصفوة المختارة أطلقوا عليها اسم « المتقين » . وبدأت هذه الجماعة (حوالى عام ٣٠٠ ق . م) بعهد بسيط قيدوا به أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب الخمر زمنا معينا ؛ ثم ذهبوا فيما بعد مدفوعين بسيكولوجية الحرب المحتومة إلى أبعد حدود التزمت ، فحرموا جميع الملاذ وعدوها استسلاما للشيطان واليونان . وعجب منهم اليونان أشد العجب وضموهم إلى زمرة الفلاسفة الزاهدين العرايا العجيبين الذين التقت بهم جيوش الإسكندر فى بلاد الهند . وحتى اليهودى العادى نفسه كان يعارض فى تزمت جماعة المتقين الشديد ويبحث لنفسه عن خطة وسطى بين التزمت والإباحية ، ولعله هو وأمثاله كان يستطيع أن يجد هذا الحل الوسط لولا أن أنتيوخوس إيفانيز حاول أن يقحم الهلنية فى بلاد اليهود بالإقناع تارة وبالسيف تارة أخرى .

وظلت بلاد اليهود تابعة لمصر حتى عام ١٩٨ حين هزم أنتيوخوس الثالث بطليموس الخامس وضمها إلى الإمبراطورية السلوقية . وكان اليهود قد ملوا حكم المصريين فأعانوا أنتيوخوس ورحبوا باستيلائه على أورشليم وتحريرهم من حكامهم ؛ ولكن خلفه أنتيوخوس الرابع لم يرق فى بلاد اليهود إلا أنها مصدر للإيراد ؛ وكان وقتئذ يستعد لحروب عوان تتطلب الكثير من الأموال ، فأمر اليهود أن يؤدوا إلى خزانة الدولة ثلث محصولاتهم من الحبوب ، ونصف ما تثمره أشجار الفاكهة[١٤] . ثم عين جيسن المعروف بتذلله وملقه حاخاماً

أكبر ؛ وتجاهل فى هذا التعيين ما جرت به العادة من توارث هذا المنصب الدينى . وكان جيسن هذا يمثل الحزب القائم فى أورشليم والذى ينادى بفرض الثقافة الهلنية على بلاد اليهود ، ويطلب الإذن بإقامة النظم اليونانية فى تلك البلاد . وأصغى أنتيوخوس إلى مطالبه وهو فرح مستبشر لأن اختلاف الطقوس الدينية الشرقية فى بلاد آسية اليونانية وقوة هذه الطقوس كانا يقلقان باله إذ كان يحلم بتوحيد إمبراطوريته المتعددة اللغات والأجناس بإخضاعها كلها لشريعة واحدة وعقيدة واحدة . ولما أن أبطأ جيسن فى العمل للوصول إلى هذه الغاية عين أنتيوخوس بدلا منه منلوس ، بعد أن وعده بأكثر مما وعده به سلفه ونفحه برشوة أكبر(١٥) . وتوحد يهوة وزيوس على يدى منلوس ، وبيعت آنية المعابد للحصول على المال ، وقربت بعض الجماعات اليهودية القرابين إلى الآلهة الهلنية . وافتتحت فى أورشليم مدرسة للرياضة البدنية ، واشترك شباب اليهود والكهنة أنفسهم وهم عراة فى الألعاب الرياضية . وبلغ من تحمس بعض شبان اليهود للهلنية أن تحملوا جراحات فى أجسامهم ليعالجوا بها بعض العيوب التى قد تكشف عن أصلهم(١٦) .

وارتاعت كثرة الشعب اليهودى من هذه التطورات وأحست أن دينها يكاد ينهار من أساسه ، فانحازت إلى آراء المتقين ؛ ولما أن طرد پوپليوس (١٦٥) أنتيوخوس الرابع من مصر ، شاع فى أورشليم أنه قتل ، فاغتبط اليهود بالنبأ ، وخلعوا الموظفين المعينين عليهم من قبله ، وقتلوا زعماء الحزب الذى كان يدعو إلى الثقافة الهلينية ، وطهروا الهيكل مما كانوا يرونه منكراً أوكفراً . لكن أنتيوخوس لم يكن قد مات ، بل هزم وذل وأصبح فقيراً معدما ؛ وقد أيقن أن اليهود كانوا سبباً فى هزيمته فى مصر وأنهم كانوا يأتمرون ليعيدوا بلادهم إلى البطالمة(١٧) ، فعاد إلى أورشليم وذبح آلافا من اليهود رجالهم ونسائهم ، ودنس الهيكل ونهبه ، وصادر مذبحه الذهبى وآنيته وكنوزه وضمها إلى الخزائن الملكية ، وأعاد إلى منلوس سلطته العليا ،وأمر أن يثقف اليهود كلهم

على الرغم منهم بالثقافة الهلينية (١٦٧) ، وأن يعود الهيكل كما كان ضريحا مقدساً لزيوس ، وأن يقام مذبح يونانى فوق المذبح القديم ، وأن يستبدل بالقرابين القديمة قربان من الخنازير . ثم حرم تقديس السبت والاحتفال بالأعياد اليهودية ، وجعل الختان جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وحرمت جميع مراسم الدين اليهودى فى جميع أنحاء بلاد اليهود ، وألزم الأهلون باتباع المراسم اليونانية ، وعوقب من يخالف هذه الأوامر بالإعدام . وكان كل من يأبى من اليهود أن يأكل لحم الخنزير وكل من يوجد عنده كتاب الشريعة يسجن أو يقتل ، وأمر أن يحرق هذا الكتاب أنى وجد(١٨) . وأشعلت النار فى أورشليم نفسها ، وهدمت أسوارها ، وبيع سكانها اليهود فى أسواق الرقيق ، وجئ بالأجانب ليقيموا فى مواضعها ، وشيد حصن جديد على جبل صهيون ، ووضعت فيه حامية من الجند لتحكم المدينة باسم الملك (١٩) . ويبدو أن أنتيوخوس سعى فى بعض الأوقات لأن يجعل نفسه إلها ، وأنه طلب إلى الناس أن يتخذوه إلها يعبدونه(٢٠) .

وزاد الاضطهاد شدة على مر الزمن . ذلك أنه يوجد دائماً فى كل مجتمع أقلية فطرت على الابتهاج إذا أذن لها بالاضطهاد ، لأنها ترى فى هذا الاضطهاد انطلاقا من قيود الحضارة . وكان عملاء أنتيوخوس من هذه الأقلية ، فإنهم بعد أن قضوا على جميع مظاهر اليهودية فى أورشليم انطلقوا انطلاق اللهب يبحثون عن هذه المظاهر فى المدائن والقرى ؛ وكانوا أينما حلوا يخيرون الأهلين بين الموت والاشتراك فى العبادات الهلنية بما تتضمنه من أكل لحم الخنازير المذبوحة على النصب(٢١) . وأغلقت جميع الهياكل والمدارس اليهودية ، وعد جميع من يأبون الاشتغال فى يوم السبت عصاة خارجين على القانون . وأرغم اليهود فى عيد باخوس أن يزينوا باللبلاب كاليونان أنفسهم ، وأن يشتركوا فى المواكب ، وأن ينشدوا الأناشيد الهمجية تكريما لديونيش . وصدع الكثيرون من اليهود بما أمروا به ، وترقبوا أن تمر العاصفة ، وفر كثيرون غيرهم إلى

(شكل ٥٠) الميناده الغضبى أو الراقصة ، نسخة رومانية منقولة عن اسكوپاس (متحف درسدن)

(شكل ٥١) إحدى بنات نيوبى (متحف ميلان)

الكهوف أو المعاقل الجبلية النائية ، وعاشوا على ما يلتقطونه خلسة من الحقول ، وثبتوا على ممارسة أساليب الحياة اليهودية . وأخذ « المتقون » يطوفون بهم يدعونهم إلى الشجاعة والمقاومة . وعثرت شرذمة من جنود الملك على كهوف آوى إليها آلاف من اليهود — رجال ونساء وأطفال — فأمروهم بالخروج ؛ فلما عصوا أمر الجنود وأبوا كذلك أن يزيلوا ماعساه أن يكون فى مداخل الكهوف من الحجارة ، لأن اليوم كان يوم السبت ، أعمل فيهم الجنود النار والسيف ، وقتلوا كثيرين من اللاجئين ، واختنق الباقون بالدخان(٢٢) . وفى المدن قبض على النساء اللائى ختن من ولدن حديثا من الأطفال وألقين هن وأطفالهن من فوق الأسوار (٢٣) . وماكان أشد دهشة اليونان من استمساك الأهلين بدينهم القديم ، ذلك أنهم لم يروا من عدة قرون مثل هذا الإخلاص للرأى والاستمساك بالعقيدة . وكانت قصص الاستشهاد تتناقلها الألسن وتملأ بها الكتب ، فضربت للمسيحين أمثلة صادقة فى الاستشهاد والشهداء . وهكذا أضحت اليهودية دينا وقومية وثبتت قواعدها وتأصلت جذورها وآثرت العزلة لتحتمى بها من أعدائها .

وكان من بين اليهود الذين فروا وقتئذ من أورشليم متاثياس Mattathias من أسرة هزموناى Hasmoni من سبط هارون — وأبناؤه الخمسة يوهنان كاديس ، وسيمون ، وبوداس ، والعزر ، ويوناثان . ولما أقبل أپليز عامل أنتيوخوس إلى مدين Modin التى لجأ إليها هؤلاء الستة ، أمر أهلها أن يجحدوا « الشريعة » ويقربوا لزيوس . وجاء متاثياس الشيخ ومعه أبناؤه الخمسة وقال : « لو ان جميع سكان المملكة أطاعوا أمركم بالمروق من دين آبائهم لبقيت أنا وأولادى الخمسة مستمسكين بعهد آبائنا الأولين » . ولما ان اقترب أحد اليهود من المذبح ليقرب القربان المطلوب ذبحه متاثياس بيده وذبح أيضا مندوب الملك . ثم نادى فى الشعب قائلا : « من كان يغار على الشريعة ، وأراد

أن يؤيد العهد فليتبعنى[٢٤] . فسار وراءه هو وأبنائه كثيرون من القرويين حتى وصلوا إلى جبل إفرايم . حيث انضمت إليهم جماعة صغيرة من الشبان الثائرين ومن كان باقيا على قيد الحياة من « المتقين » .

وبعد قليل من هذا الحادث توفى متاثياس بعد أن أوصى بأن يرأس أتباعه من بعده ابنه بوداس المعروف باسم مكابى(*). وكان بوداس هذا رجل حرب أوتى من الشجاعة مثل ما أوتى من التقوى . وكان من عادته قبل أن يخوض أية معركة أن يصلى كما يصلى الأولياء المطهرون، حتى إذا خاض غمارها «كان كالأسد فى سورته » . وكان جيشه الصغير « يعيش فى الجبال كما تعيش الوحوش ، ويقتات بالأعشاب » . ثم ينقض من حين إلى حين على إحدى القرى المجاورة ويقتل المارقين ويهدم مذابح الوثنيين ؛ و« إذا وجدوا أطفالا لم يختتنوا أجروا لهم عملية الاختتان بشجاعة[٢٥] » . ونقلت هـــذه الأنباء إلى أنتيوخوس فسير عليهم جيشاً من السوريين اليونان وأمره أن يهدم حصن المكابيين . والتقى بهم بوداس فى ممر إموس Emmaus وانتصر عليهم نصراً موزرا (١٦٦) ، مع أن اليونان كانوا من الجنود المرتزقة المدربين أحسن تدريب والمسلحين أتم تسليح . بينا كانت فرقة بوداس يعوزها الكثير من السلاح والثياب . وسير أنتيوخوس عليهم قوة أخرى أكبر من القوة السابقة بلغ من ثقة قائدها بالنصر أن جاء معه بالنخاسين ليبتاعوا من كان ينتظر أسرهم من اليهود ، ووضع فى المدن اللوحات بما يطلب فيهم من الأثمان[٢٦] . وهزم بوداس هذا الجيش فى مزياح ، وكانت الهزيمة حاسمة سقطت على إثرها أورشليم فى قبضته دون مقاومة ؛ فلما دخلها أخرج ما كان فى الهيكل من مذابح وزينات وثنية وطهره ودشنه من جديد . وأعاد الصلوات القديمة إلى سابق عهدها وسبط مظاهر الابتهاج من اليهود العائدين المستمسكين بالدين(**) (١٦٤) .

(*) يفسر هذا اللفظ عادة « بالمطرقة » وإن كان هـــذا التفسير غير موثوق بصحته .

(**) لا تزال ذكرى هذا المولد الجديد من الأعياد التى يحتفل بها فى كل بيت يهودى تقريبا .

ولما تقدم ليسياس Lysias نائب الملك بجيش جديد ليسترد به العاصمة ، شاع بين الجند أن أنتيوخوس قد مات — وكانت هذه الشائعة صادقة فى هذه المرة (١٦٣) . وأراد ليسياس أن يكون حرا فى العمل فى غير هذا الميدان فعرض على اليهود أن يترك لهم حريتهم الدينية الكاملة إذا ما ألقوا السلاح ؛ فرضى بذلك «المتقون» ورفضه المكابيون ، وأعلن بوداس أن بلاد اليهود لا تأمن على نفسها من الاضطهاد إلا إذا نالت استقلالها السياسى والدينى جميعا . وسكر المكابيون بخمرة النصر فبدؤوا هم أنفسهم يضطهدون أعداءهم ، وينتقمون من الحزب المشايع لليونان فى أورشليم وفى المدن المجاورة للحدود[٢٧] ، وفى عام ١٦١ هزم بوداس نكانور Nicanor عند أداسا Adasa وقوى نفسه بأن عقد حلفا مع رومة ، ولكنه قتل فى تلك السنة نفسها وهو يحارب جيشاً أقوى من جيشه عند إلاسا Elasa وواصل أخوه يوناثان الحرب بشجاعة عظيمة ولكنه قتل هو الآخر عند عكا (١٤٣) . ولم يبق بعدئذ من الإخوة الخمسة إلا سيمون ، وقد استطاع بمعونة رومة أن ينال من دمتريوس الثانى فى عام ١٤٢ اعترافا باستقلال بلاد اليهود . وعين سيمون بمرسوم شعبى حاخاما أكبر وقائدا عسكريا ، وإذ كان هذان المنصبان قد أصبحا وراثيين فى هذه الأسرة فقد أضحى هو مؤسس الأسرة المالكة الهزمونية Hasmonean ، وعدت أول سنى حكمه بداية التاريخ الجديد ، وصدرت عملة تعلن مولد الدولة اليهودية الجديدة